ب- الأسلوبيّة التعبيرية

أعتبر «شارل بالي» أن الطابع الوجداني هو العلامة الفارقة في أية عملية تواصل بين مرسل ومتلق، ومن هنا يؤكد على علامات الترجي والأمر والنهي، التي تتحكّم في المفردات والتراكيب، وتعكس مواقف حياتية واجتماعية وفكرية، ثمّ تقسيمه الواقع اللغوي إلى نوعين : ماهو حامل لذاته، وما هو مشحون بالعواطف والانفعالات، أو الكثافة الوجدانية، وطريقة «بالي» الاستقصائية «تدور حول أبرز المفارقات العاطفية والإرادية والجمالية والوسائل اللغوية التي تجسدها في النص.

ولقد أنجز بعض اللغويين دراسات متنوعة تتعلّق بالمعجم والتراكيب والدلالات، وكلّها تدور في فلك الأسلوبيّة التعبيرية، وقد توسع «كراسو» مثلا في دراسة الكلمات وتراكيب الجمل، وتعمّق «سبيتزر» في نظام الأفعال، وتفحّص «أولمان» الفعل الماضي في المسرح المعاصر»[138].

يعد «شارل بالي» (1865–1947) من الرواد المؤسسين للأسلوبية، وهي تعني عنده البحث عن القيمة التأثيرية لعناصر اللغة المنظمة والفاعلية المتبادلة بين العناصر التعبيرية التي تتلاقى لتشكيل نظام الوسائل اللغوية المعبرة، وتدرس الأسلوبيّة عند «بالي» هذه العناصر من خلال محتواها التعبيري والتأثيري.

أسس شارل بالي في الأسلوبيّة كتابين هامين هما: «في الأسلوبيّة الفرنسية» صدر 1902 و«المجمل في الأسلوبيّة» صدر 1905 ثم أصدر كتابين آخرين هما: «اللغة والحياة» «1913» و«اللسانيات العامة واللسانيات الفرنسية» 1932[139]. وفي هذه المؤلفات يسعى بالي إلى البحث في العلاقة التفاعلية بين اللغة باعتبارها نظاماً من العلامات والرموز والقيم التعبيرية والجوانب التأثيرية فيها.

والأسلوبيّة حسب بالي وجورج مونان وبعض الأسلوبيين تسعى إلى الإجابة عن السؤال التالي : كيف يكتب الكاتب؟

يقول جورج مونان «: إن البلاغة القديمة كانت وما تزال تجيب فعلا عن هذا السؤال بيد أن هذا السؤال عند الألسنيين المحدثين يكتسي معنى مختلفا، لأن

منطلقهم هو القاريء لا الكاتب كما كان، ويتمثل ذلك في اعتبار الأثر الفني سواء كان قصة أو قصيدة أو مسرحية والانطلاق من ذلك الأثر، وقد أنجز، ولا يكون البحث عن سبب كتابة الكاتب إياه، ولا حتى في الحقيقة كيف كتبه، ما قبليا، لأن هذا السؤال تقليدي، وإنما يكون البحث في المقام الأول وظيفيا. كيف يؤثر في القراء؟ فالطرافة الأعمق وبدون ريب الأخفى، في جل الأسلوبيات الألسنية اليوم تكمن في هذا المنطلق، وإنه لمن الصعب استبطان الآخرين، ونعني هنا الخلاقين إذا أمكن لنا أن نجازف بمثل هذا التعبير، ولاشك أن استبطان القراء لايثير ربما صعوبات مختلفة كل الإختلاف، إلا أن الألسنية بدأت تشعر بكفاءتها في هذا المضمار لأسباب سنشرحها بعد هذا»[140]. ما يلاحظ على جروح مونان في هذه الفقرة هو اكتفاؤه بالقول إن الأسلوبيّة وصفية والواقع أن الأسلوبيّة في درسها للنصوص الإبداعية لاتكتفي بالوصف، وإنما تحلل الظواهر اللغوية المشكلة لبنية النص.وتسعى إلى استظهار الدلالات الخفية ومدى تأثيرها في الملتقى.

كان «شارل بالي» يعد علم الاسلوب واحدا من علوم اللغة كعلم الأصوات وعلم التراكيب، وعلم الصيغ، وكان يدعو إلى عدول علم اللغة عن المنهج التاريخي في الدراسة ليتناول عصرا محددا في تطور اللغة، معتمدا على اللغة التلقائية الطبيعية المتكلمة، وهذا ما يجب اعتماده في علم الأسلوب حسب بالي، ولقد كان بالي يرفض بعض مقولات الأسلوبين الألمان الذين كانوا يعدون الأسلوب هو الخصائص التي تميز لغة ما، وتعبر عن الخصائص القومية لأهلها، وكانت اهتماماتهم تنحصر في تحديد السمات اللغوية العامة.

إن هذه السمات العامة –كما يرى بالي– هي أفكار مجردة بعيدة عن واقع الاستعمال اللغوي، ولذلك كان يرفض رأي هؤلاء الأسلوبيين، كما كان يرفض الفكرة الشائعة القائلة بأن كل علامة لغوية لها مدلول أساسي معين، وهو يرى أن واقع اللغة إنما يظهر حين يقرن الباحث الملاحظة الداخلية «الاستبطانية» بالملاحظة الخارجية، مثل هذه المقارنة بين العناصر الفكرية في اللغة «التي نتوصل إليها بالملاحظة الخارجية» «والعناصر الوجدانية» التي نتوصل إليها بالملاحظة الداخلية» هي موضوع علم الأسلوب، في حين أن الملاحظة الخارجية المحظة سوف تتداخل إن عاجلا وإن آجلا مع النحو، وعلى الرغم من هذا التقرير فقد عاد «بالي» فأشار إلى أن الخصائص المميزة للغة ما– مثل ميل الألمان إلى

التركيب والإشتقاق– يجب أن تدرس من وجهة علم الأسلوب، ولعلّه كان يفكّر في هذا الميل كواقع ملاحظ ومطّرد، لاكسمة عقلية مجرّدة(141).

وإذا كان «بالي» قد اهتم باللغة من حيث تعبيرها عن الوجدان، فإنّه لم يخص لغة الأدب بذلك، وإنّما تحدّث عن اللّغة الطبيعيّة التوصيليّة أيضاً، وكان موضوع علم الأسلوب هو دراسة المسالك، والعلامات اللغوية التي تتوسل بها اللغة لإحداث الانفعال، لانفس الإنفعال الحادث لدى المتكلم والسامع، فرب عبارة معينة ينتج عنها حكم قيمي لدى السامع، مع أنها لا ترتبط– من حيث هي مسلك لغوي– بانفعال معين، فالحكم القيمي الذي يصدره سامع في مناسبة معينة يمكن أن يكون منصبا على قائل القول، وهذا لا مدخل له في علم الأسلوب، ولذلك يفرّق «بالي» بين الكلمة كأمارة والكلمة كعلامة، وينبغي أن يلاحظ في هذا السياق أيضا أن مفهوم «الحكم القيمي» عنده مختلف عن مفهوم «القيم الجمالية» فالثاني أخص من الأول»(142).

إهتم الباحثون العرب بأسلوبية «شارل بالي» فترجموا جزءا من أعماله(143). ولخصوا بعضها، وحاولوا تحديد اتجاهه في البحث الأسلوبي ومنهجه في درس الأسلوب وتحديد خصائصه، فعلم الأسلوب حسب بالي : «ينبسط على رقعة اللغة كلّها فجميع الظواهر اللغوية ابتداء من الأصوات حتى أبنية الجمل الأكثر تركيبا، يمكن أن تكشف عن خصيصة أساسية في اللغة المدروسة، وجميع الوقائع اللغوية مهما تكن يمكن أن تشف عن لمحة من حياة الفكر أو نبضة من الحساسية، إنّ علم الأسلوب لا يدرس قسما من اللغة بل اللغة بأكملها منظورا إليها من زاوية خاصة»(144). وفي رد «بالي» على من زعموا فصله بين لغة الوجدان، ولغة العقل، يقول : «أنا لم أزعم قط (وأقول هذا ردا على نقد وجه إلي) أن لغة الوجدان لها وجود مستقل عن لغة العقل، وأن علم الأسلوب ينبغي أن يدرس الأولى ويدع الثانية، بل إنه يدرسهما معا في علاقتهما المتبادلة، ويبحث نسبة كل واحدة إلى الأخرى في تكوين هذا النمط أو ذاك من أنماط التعبير»(145).

فقد كان «شارل بالي» يقصر دور الأسلوبيّة على دراسة القيمة العاطفية للوقائع اللغوية المميزة والعمل المتبادل للوقائع التعبيرية، التي تساعد على تشكيل نظام وسائل التعبير في اللغة، وحسب «بالي» أن هناك قيما تعبيرية لا

واعية في هذا النظام، وهناك قيم تأثرية واعية تنتج عن قصد، وقد يعبر المتكلم عن موقف واحد بعبارات عديدة، وتدعى هذه الحالة بالمتغيرات الأسلوبيّة«Variante» وتتجلى هذه الظاهرة في التعبير عن الامتنان مثلا بعدة امكانات تعبيرية منها :

– «تفضلوا بقبول خالص الشكر والامتنان .

– شكرا جزيلا .

– كم أنا ممتن !

– أنت صديق .

إنّ كلاً من هذه الصيغ يشكّل طريقة خاصة في التعبير عن الفكرة نفسها».

فاللغة بهذا المعنى لا تعبر فقط عن الحقيقة الموضوعية، بل تعبر عن العواطف أيضا، فكل عبارة تبدو ممتزجة بشيء من الشعور والانفعال، فغاية «بالي» هي البحث عن المضمون العاطفي الذي تقدمه التراكيب اللغوية، وبالنسبة إليه أن رد فعل المتلقى لخبر حادث اصطدام وهو يصرخ : «يا للمسكين !» بالنسبة لبالي يوجد في هذا التعبير تركيبان يتطابقان مع حدثين :

– التعجب المرتبط بالتنغيم أو طريقة أداء العبارة .

– الحذف «élipse » أو عملية الإضمار التي حذفت الفعل الذي تفترضه الجملة المفيدة، فدور الأسلوبيّة باستنتاج التعجب والحذف، وهما وسيلتان من وسائل التعبير عن الانفعال، وهذا الانفعال هو «الشفقة» إذا ما رجعا إلى السياق، وانطلاقا من هذه النظريّة التركيبية تفحص الوسائل التعبيرية في لغة ما، وفي آونة معية من تطور هذه اللغة، دون إغفال الوجه الاجتماعي للغة وهو يتضمّن المقام ومقتضى الحال، والأسلوبيّة في هذا السياق تلفت النظر إلى الاستعمالات الأسلوبيّة المميزة كالتشابه والترادف، والمعنى المجازي، وقوة الإيحاء، والحذف، والاضمار، والتفكك وسوى ذلك من الظواهر والوقائع الأسلوبيّة(146) .

ترى عزة آغا ملك أن هناك العديد من الأسلوبيين الذين حذوا حذو «بالي» ومنهم :

1)– «جول ماروزو» الذي رفض أن يحصر حقل الأسلوبيّة في اللغة المحكية فقط.

2)– «مارسيل كريسو» الذي ضمن الأسلوبيّة لغة الكُتّاب وما تشتمل عليه أساليبهم من جوانب وجدانية .

3)– روبرت سايس الذي حاول أن يحسن طريقة التحليل برفضه الاستشهاد بأمثلة معزولة عن سياقها، كما كان الحال مع أسلافه .

4) – ستيفان أولمان الّذي نظم المباديء الأولية التي ألهمت «بالي»، وهو الذي أدخل في التحليل الأسلوبي المفاهيم التالية : تعدد المعاني، الإنحراف الأسلوبي، الإيحاء، الاختيار، وكذلك الأسباب الدافعة لهذا الاختيار بالنسبة للكاتب(147).

إنّ أسلوبية «بالي» تقوم على تحديد ما في اللغة من وسائل تعبيرية تبرز المفارقات العاطفية والإرادية والجمالية، والاجتماعية والنفسية، ويبحث «بالي» عن هذه الظواهر الأسلوبيّة في اللغة الشائعة التلقائية(148) بمعنى أن موضوع التحليل الأسلوبي عند «بالي» هو الخطاب اللساني بصفة عامة، ولكنه يحصر مجال الأسلوبيّة في القيم الاخبارية،

التي يشتمل عليها الحدث اللغوي : بأبعاده : دلالية، وتعبيرية، وتأثيرية، يكون بهذا التأسيس العلمي قد حدد للأسلوبية بعض مجالات التحليل.

عرض صلاح فضل آراء «شارل بالي» في الأسلوبيّة، وطريقته في تحليل الوقائع الأسلوبيّة في الكلام العفوي، وأوضح المباحث التي تناولها بالي بالدراسة وآراءه في الفكر والحياة عبر اللغة، ومهمة علم الأسلوب في تحديد أنماط التعبير من خلال دراسة الوسائل والإجراءات التي تؤدي إلى إنتاج اللغة، وأثر الظواهر الأسلوبيّة في المتلقي، والانفعال المصاحب للتعبير عن مواقف أو عن صور مجردة، ودور المعجم في البحث الأسلوبي لأنّ المفردات هي مرتكز التحليل الأسلوبي عند بالي بالإضافة إلى ما يشتمل عليه المستوى الدلالي من : تأثير طبيعي، وتأثير إيحائي، يقول بالي : «هناك مبدأ هام في منهجنا هو أن نعمد عن طريق التجريد إلى إقامة بعض أشكال التعبير المثالية والعادية وهي أشكال لا توجد بهذا الصفاء في أية حالة من حالات اللغة، ولا تتحول عادة إلى وقائع ملموسة وانطلاقا منها نلاحظ ما يلي :

1– الاتجاهات الدائمة للروح الإنسانية .

2– الشروط العامة لتوصيل الفكر فمنهج «بالي» حسب «صلاح فضل» لغوي بحت، وفيه يعتمد التضاد الفعال، ويستخدم طريقة المقارنة، ولا يكتفي صلاح فضل بعرض آراء «بالي» بل يناقشها ويشير إلى كيفية استفادة اللغة العربية من التحليلات اللغوية والبلاغية، والمزاوجة بين المنهج الوصفي والتاريخي لاستجلاء كيفية قيام العربية بوظائفها التعبيرية ومهامها الأسلوبيّة(149).

لم تغفل الدراسات الأسلوبيّة العربية الإشارة إلى جهود «شارل بالي» في تأسيس الأسلوبيّة التعبيرية ولكنها لم تتوقف عندها كثيرا، لأنّها مخطوفة بملاحقة الجديد، ولم تقم في العربية دراسة أسلوبية تتمثل منهج «بالي» في رصد الحدث التعبيري الشفوي ووقائعه الأسلوبيّة، وقد نحا البحث في اللهجات وأساليب التعبير في الأوساط الاجتماعية منحى لسانيا(150) وقد ألمح صلاح فضل إلى «المدرسة الفرنسية وتقنية التعبير اللغوي» ومن خلال ذلك أشار إلى إسهام «شارل بالي» في تأسيس علم الأسلوب بنشره دراسات نظرية وتطبيقية وهو يعرف علم أسلوب على النحو التالي : «هو العلم الذي يدرس وقائع التعبير اللغوي من ناحية محتواها العاطفي، أي التعبير عن واقع الحساسية الشعورية من خلال اللغة وواقع اللغة، عبر هذه الحساسية(151)ومهمة علم أسلوب هي « تحديد أنماط التعبير التي تترجم في فترة معينة حركات فكر وشعور المتحدثين باللغة ودراسة التأثيرات العفوية الناجمة عن هذه الأنماط لدى السامعين والقراء(152) بمعنى أن علم الأسلوب عند «بالي» يدرس التعبير في الوسط الاجتماعي، كما أن ميدان هذا العلم هو دراسة التعبير من ناحية الإجراءات والوسائل التي تؤدي إلى إنتاج اللغة، ودراسة اللغة الأدبية عند «بالي» لاتدخل في علم الأسلوب(153) وقد حاول صلاح فضل الإلمام بأسلوبية «شارل بالي» وتحديد خصوصياتها المنهجية في مبحث فيه إلى الدقة والموضوعية في بسط آراء«بالي» التي تتلخص فيما يلي :

1– البحث عن مكامن القوة التعبيرية في اللغة على جميع مستوياتها.

2– تحليل علاقاتها بالفكر وبالشخصية الجماعية بدراسة أهم العناصر التعبيرية ودورها في تشكيل النظام العام بعلاقاته – أ –الداخلية من ناحية – ب – ومقارنته بالنظم الخارجية الأخرى من ناحية ثانية.

لقد حرص «بالي» في دراسته الأسلوبيّة أن تتم باختبار منتظم للمستويات الصوتية والمعجمية والنحوية والدلالية بالإضافة إلى قضايا المجاز، وقد كان «لبالي» تأثير كبير في أتباعه، وقد حاول صلاح فضل الإشارة إلى كيفية الاستفادة من الإنجازات الأسلوبيّة في المنهج التعبيري وتطبيقها على نصوص اللغة العربية، ولكنه لا يعطي إجابة نهائية عن كيفية الاستفادة التي يقترحها، و إن كان يُقرّ في ختام المبحث أنّه لابدّ من المزاوجة بين المنهج الوصفي والتاريخي مع الاحتفاظ بمستويات كل منهما، وتكييف المقولات اللغوية الحديثة، لتتمكن من احتضان مادتنا العربية، واستجلاء كيفية قيامها بوظائفها التعبيرية ومهامها الأسلوبيّة[154].

وفي هذا المبحث المعنون بـ «المثالية الألمانية والتقاط الحدس» عرض الباحث آراء «بينديتو كروتشيه» في اللغة وعلم الجمال، فهو يرى أن اللغة في جميع مظاهرها هي تعبير خالص، ومن ثم فهي علم جمالي، وهي أصوات منظمة مهيأة من أجل التعبير، وهذا التصور للغة إنّما هو تصورّ أسلوبي، ولذلك وجدنا كروتشيه قائلا : « أليست قواعد الكلام.. هي قواعد الأسلوب نفسها[155] حاول «حمادي صمود» كغيره من الباحثين الأسلوبيين تحديد الخصائص النظرية التي يقوم عليها اتجاه «شارل بالي» في الأسلوبيّة.

فعرض آراءه في اللغة وعلاقتها بمختلف أوجه حياة المتكلم، وهي آراء تقوم من نظريته في الأسلوب مقام الأساس، إذ لا بدّ لكلّ تصورّ للأسلوب من تصورّ مسبق لجهاز اللغة باعتبار الأسلوب حدثا تعبيريا ونشاطا لغويا.

يقول حمادي صمود : لقد أسّس «شارل بالي» نظريّة الأسلوبيّة على اعتبارات جوهرية وهي :

1– جعل اللغة هي مادة التحليل الأسلوبي وليس الكلام، فهو يركز على الاستعمالات اللغو ية المتداولة بين الناس، وليس اللغة الأدبية فقط. وهذا يخالف «دوسوسير» الذي كان يعد «نظام اللغة نسقا من الرموز الدالة تشدها شبكة من العلاقات لا اعتبار فيها للقيمة التعبيرية» وفي هذا دليل على تصور نظام اللغةبعيدا عن ملابسات إنجازها، منفصلة عن مستعملها.

2– يرى «بالي» أن اللغة حدث اجتماعي صرف يتحقّق بصفة كاملة واضحة في اللغة اليومية الدائرة في مخاطبات الناس ومعاملاتهم .

3– ويعتبر كلّ فعل لغوي فعلا مركبا تمتزج فيه متطلبات العقل بدواعي العاطفة بل إن الشحنة العاطفية أبين في الفعل اللغوي وأظهر بناء على تصور فلسفي يعتبر الإنسان كائنا عاطفيا قبل كلّ شيء.

لقد بين بالي إحساس المتكلم باللغة، واللغة علاقة، تأثير وتأثر، فللبعد العاطفي حضور عند التفكير في نظام اللغة(156)، ومن هنا كان «بالي» يلح على ضرورة العلاقة بين الضوابط الاجتماعية والنوازع النفسية في نظام اللغة، فالأسلوبية ليست بلاغة وليست نقدا إنّما مهمتها البحث في علاقة التفكير بالتعبير، و إبراز الجهد الذي يبذله المتكلم ليوفق بين رغبته في القول وما يستطيع قوله(157) ولعلّ هذا الفهم هو ما جعل «بالي» يعرض عن دراسة اللغة الأدبية أقصد لغة النصوص الأدبية. غير أن فهم البعد العلمي للأسلوبية، والرغبة في دارسة الخطابات الأدبية وفقها عند كثير من الباحثين الأسلوبيين الذين جاءوا بعد «بالي» جعل من الأسلوبيّة تحقق مطمحها، وتختص بدراسة الخطاب الأدبي تنظيرا وتطبيقا، لأن الخطاب الأدبي إنجاز لغوي بني وفق أسلوب مخصوص، ولا مجال لتحديد خصائص هذا الأسلوب إلا باعتماد الأسلوبيّة في تحليله.